مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 21 عدد 2 السنة :2022

قصدية الخطاب الإنسانيّ والحضاريّ في الحديث النبوي الشريف والأبعاد الزمانيّة والمكانيّة

The intentionality of human and civilizational discourse in the noble Prophet's hadith And the temporal and spatial dimensions

الملتقى الدولي

الحديث النبوي الشريف وآليات تحليل الخطاب

11و12 شعبان1443هـ الموافق: 14و15مارس 2022م

أ د/ مها خير بك

الجامعة اللبنانية . بيروت.

تاريخ الاستلام: ../../2022 تاريخ القبول: ../../2022. تاريخ النشر: 28/07/ 2022

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة بعض الأحاديث النبويّة الشريفة، لغويًّا دلاليًا، من أجل الكشف عن رشحها الأبديّبمقاصد وغايات وأهداف إنسانيّة وحضاريّة فاعلة في الزمان والمكان،بوصفها خطابات مرسِل مُرسَل من ربّ العالمين ليهدي البشريّة ويضع لهمقواعد معرفيّة ودينيّة اجتماعيّة وحضاريّة ترسّخ كينونة الإنسان وتمنحه القدرة على تأدية دوره الوجوديّ والإنسانيّ بمعرفة ووعي وصدق.

يفرض مقام البحث أن تقتصر الدراسة على عدد من الأحاديث؛ لأنّ الإحاطة بالأحاديث النبوية الشريفة كلّها تحتاج إلى فريق عمل بحثيّ وإلى سنوات من القراءة والدراسة والتحليل، تفرضها غزارة المادة اللغويّة، وقوة سبكها وفيضها الدلالي، ولذلك سيكون التركيز علىخمسة أحاديث نبويّة شريفة متنوعة الموضوعات والمقاصد، فالحديث الأوّل موضوعه فعل الفصاحة اللغوية في القضاء وأخلاقيّة المتخاصمين،

والحديث الثاني يتناول موضوع الرفق بالحيوان، والثالث موضوعه اجتماعي وحضاري وإنساني يتبيّن من خلاله طبيعة أبناء البشر ومدى قبولهم العلم والهداية، والرابع موضوعه التعريف بالمسكين الحقيقيّ والدعوة إلى الابتعاد عن ظاهر المرئيات إلى ما سترته المظاهر وعفة النفس من حاجة مظللة بالكرامة والإباء والصبر، أمّا الحديث الخامسفموضوعه قيميّ واجتماعيّ وحضاريّ، تكشف بنياته عن أعراف اجتماعيّة سليمة لا تحمّل المضيف أعباء إضافيّة، وتوجه الضيف ليكون بعد مدة منتسبًا بالمسؤولية والمهام إلى أهل البيت الذين استقبلوه وأكرموه، وهذه الأحاديث منتقاة من الموطأ ومن صحيح البخاريّ وصحيح

الكلمات المفتاحية: قصدية الخطاب الإنساني، قصدية الخطاب الحضاري، الحديث النبوي الشريف، الأبعاد الزمانية والمكانية.

Summary:

This study aims to read some of the noble prophetic hadiths, linguistically and semantically, in order to reveal their eternal nomination for effective human and civilizational purposes, objectives, and goals in time and place, as the speeches of a messenger sent by the Lord of the Worlds to guide humanity and establish for them cognitive, religious, social, and cultural rules that establish the human being and give him the ability to perform the same. His existential and human role with knowledge, awareness .and honesty

The purpose of the research requires that the study be limited to a number of hadiths. Because understanding all the noble Prophetic hadiths requires a research team and years of reading, study and analysis, imposed by the abundance of linguistic material, the strength of its casting and its semantic overflow. Therefore, the focus will be on five noble Prophetic hadiths with a variety of topics and purposes. The first hadith is about the act of linguistic eloquence in the judiciary and the morality of the disputants. The

second hadith deals with the topic of kindness to animals, and the third has a social, cultural, and humanitarian topic through which the nature of human beings and the extent of their acceptance of knowledge and guidance is revealed. The fourth has its topic: introducing the truly poor and calling for people to move away from the apparent visible things to what appearances and chastity of the soul have concealed, a need shaded by dignity, pride, and patience. As for the fifth hadith, its topic is Value-based, social and civilized, its structures reveal sound social norms that do not burden the host with additional burdens, and direct the guest to be, after a period of time, ascribed responsibility and duties to the household who received and honored him. These hadiths are selected from Al-Muwatta and from Sahih Al-Bukhari and Sahih.

Keywords: intentionality of human discourse, intentionality of civilizational discourse, the noble Prophet's hadith, temporal and spatial dimensions.

أولاً:فاتحة الدراسة

يفيد مصطلح الخطاب Discourse الكلام المتضّمن رسالة هادفة وموجّهة من مرسلٍ إلى متلقٍ، ولقد عرّفه أبو البقاء الكفويّ، في كتابه" معجم المصطلحات والفروق اللغويّة"، بأنّه" الكلامُ الذي يُقصد به الإفهام، إفهام من هو أهلٌ للفهم، والكلام الذي لا يُقصد به إفهام المستمع لا يُسمّى خطابًا"، وهذا التعريف يؤكّد أنّ الخطاب يحتاج إلى متكلّم" مرسل فصيح وبليغ، وإلى متلقٍ مرسَل إليه/ قارئ/ أُو مستمع فهيم قادرٍ على إدراك مقاصد الرسالة وأهدافها.

الخطاب، إذًا، وفق تعريف أبي البقاء هو كلّ لفظ فيه متكلّم ومستمع، ويهدف إلى تأثير المتكلّم في المستمع بطريقة ما. وهذا التعريف يطابق ما ذهب إليه زفيتان تودروف Tzvetan Todorov الذي رأى أنّ الخطاب هو أيّ منطوق أو فعل كلاميّ يفترض وجود راوٍ ومستمع ، وفي نية الراوي التأثير في المستمع بطريقة ما.

تحدّد التعريفات السابقة عناصر الخطاب من دون الإشارة إلى طبيعة الخطاب اللغويّة، أمّا ميشال فوكوMichel Foucault فلقد ركّز في تعريف الخطاب على طبيعته اللغويّة، ورأى أنّه "النصوص والأقوال التي يعطي مجموع كلماتها نظام بنائها، وبنيتها المنطقية، وتنظيمها البنائي"، وهذا التعريف يتوافق وتعريف هارتمان ستورك (Hartman Stork)، فالخطاب، في رأيهما، "نصّ محكوم بوحدة كليّة واضحة ويكون مؤلفًا من صيغ تعبيرية متوالية تصدر عن متحدث فرد يبلغ رسالة ما".

الخطاب، إذًا، نصٌّ كلاميّ، قوامه لغة تحمل معلومات ورسائل يريد المتكلم أن يوصِلها إلى متلقين بغية التأثير والإقناع، ولذلك وجب أن يتصّف الخطاب بالتنظيم والدقّة والبنيّة اللغويّة المتماسكة ذات الأهداف والغايات والمقاصد، سواء أكان الخطاب شعرًا أم نثرًا، وسواء أكان دينيًّا أم سياسيًّا أم اجتماعيًّا أم فلسفيًّا، أم وطنيًّا.

استنادًا إلى ما سبق يمكن القول إنّ الأحاديث النبويّ الشريفة حققت مفهوم الخطاب، بوصفها منطوق ناطقٍ فصيح بليغ / مُبلّغ أحكم كلامه بوحدة لغويّة كليّة واضحة، قوامها التنظيم والحبك والاتساق، وسمتها الأساس وحيّ ربانيّ إلى رسول كريم قال فيه الله تبارك وتعالى " وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يُوحى"[1]، فكان لكلامه" عليه الصلاة والسلام" أثره وفعله في تفكير كلّ متلقٍ سامعٍ أو قارئ راغبٍ في تفعيل عملية التواصل المعرفيّ في أبعادها الدينيّة والفقهيّة والاجتماعيّة والحياتيّة والإنسانيّة والحضاريّة.

تظهر قراءة الخطاب النبوي الشريف أنّ له أهدافًا تقولها بنيات لغويّة، أساسها جمل خبرية، وجمل إنشائيّة مشحونة بأفعال كلاميّة تتمايز بقوة إنجازيّة وبفعل تأثيريّ / قصديّ يقرأه أبناء الحياة المنتسبون إلى جغرافيات مكانيّة، لكلّ منها هويةحضاريّة مُكتسبة من فعل حركيّ لزمن لا يعرف الثبات،لأنّ عقاربه المرئيّة سعي الذات البشريّة إلى تحقيق إنسانيتها، وهذه الذات لا تحقّق كينونتها من دون ثوابت معرفيّة تشكّل مركزيّة أساسًا في عملية البحث والكشف والتطوير والتأصيل، فكانت الأحاديث النبويّة الشريفة ثوابت معرفيّة ترشح فكرًا حضاريًّا وإنسانيًّا في كلّ زمان ومكان.

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة بعض الأحاديث النبويّة الشريفة، لغويًّا دلاليًا، من أجل الكشف عن رشحها الأبديّبمقاصد وغايات وأهداف إنسانيّة وحضاريّة فاعلة في الزمان والمكان،بوصفها خطابات مرسِل مُرسَل من ربّ العالمين ليهدي البشريّة ويضع لهمقواعد معرفيّة ودينيّة اجتماعيّة وحضاريّة ترسّخ كينونة الإنسان وتمنحه القدرة على تأدية دوره الوجوديّ والإنسانيّ بمعرفة ووعي وصدق.

[1]– النجم:3–4

يفرض مقام البحث أن تقتصر الدراسة على عدد من الأحاديث؛ لأنّ الإحاطة بالأحاديث النبوية الشريفة كلّها تحتاج إلى فريق عمل بحثيّ وإلى سنوات من القراءة والدراسة والتحليل، تفرضها غزارة المادة اللغويّة، وقوة سبكها وفيضها الدلالي، ولذلك سيكون التركيز علىخمسة أحاديث نبويّة شريفة متنوعة الموضوعات والمقاصد، فالحديث الأوّل موضوعه فعل الفصاحة اللغوية في القضاء وأخلاقيّة المتخاصمين، والحديث الثاني يتناول موضوع الرفق بالحيوان، والثالث موضوعه اجتماعي وحضاري وإنساني يتبيّن من خلاله طبيعة أبناء البشر ومدى قبولهم العلم والهداية، والرابع موضوعه التعريف بالمسكين الحقيقيّ والدعوة إلى الابتعاد عن ظاهر المرئيات إلى ما سترته المظاهر وعفة النفس من حاجة مظللة بالكرامة والإباء والصبر، أمّا الحديث الخامسفموضوعه قيميّ واجتماعيّ وحضاريّ، تكشف بنياته عن أعراف اجتماعيّة سليمة لا تحمّل المضيف أعباء إضافيّة، وتوجه الضيف ليكون بعد مدة منتسبًا بالمسؤولية والمهام إلى أهل البيت الذين استقبلوه وأكرموه، وهذه الأحاديث منتقاة من الموطأ ومن صحيح البخاريّ وصحيح مسلم، وهي:

" إنَّما أنا بَشَرٌ وإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، فأقْضِي علَى نَحْوِ ما أسْمَعُ، فمَن قَضَيْتُ له مِن حَقِّ أخِيهِ شيئًا، فلا يَأْخُذْهُ فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ"[2]

"بينَما رجلٌ يمشي بِطريقٍ اشتَدَّ بِهِ العَطشُ، فوجدَ بئرًا فنزلَ فيها، فشرِبَ ثمَّ خرجَ، فإذا كلبٌ يلهَثُ، يأكُلُ الثرَى من العَطشِ، فقال الرَّجُلُ: لقد بلغَ هذا الكلبُ من العَطشِ مِثلَ الَّذي كان بلغَني، فنزلَ البِئرَ فملأَ خُفَّهُ ثمَّ أمسكَه بفيهِ فسَقَى الكلبَ فشكرَ اللهُ لهُ ، فغفرَ لهُ . قالوا : يا رسولَ اللهِ و إنَّ لنا في البهائمِ أجرًا ؟ قال : في كُلِّ كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ "[3]

"إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمَ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فكانتْ مِنها طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكَان مِنها أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وسَقَوا وَزَرَعُوا، وأَصَابَ طَائِفَةً مِنها أُخْرَى إنَّما هِي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ"[4]

" ليسَ المِسْكِينُ الذي يَطُوفُ علَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، ولَكِنِ

[2]-الموطأ ، ص631- البخاري ص 7169

[3]-صحيح البخاري 2363- مسلم 2244

[4]-**صحيح البخاري: 79- صحيح مسلم: 2282**

المِسْكِينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، ولَا يُفْطَنُ به، فيُتَصَدَّقُ عليه، ولَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ"[5]

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه، جائزته يومٌ وليلة، وضيافته ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يُحلّ له أن يثوي عنده حتى يُحرِجَه"[6]

ثانيًا: قصدية الخطاب النبويّ الشريف الإنسانيّ والحضاريّ

يهدف التلّفظ بالخطاب اللغويّ إلى تواصل ما بين مرسل ومتلقٍ، ولذلك لا قيمة للتواصل من دون قصديّة لما لها من دور فاعل في ذهن المتلقي وإفهامه، وهذا المصطلح مشتق من كلمة" القصد" التي تفيد الاستقامة والاعتزام والتوجه والنهوض، ولقد جاء في كتابه العزيز:"وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ"[7] ، أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة، وهذا المعنى الدلاليّ استند إليه ابن منظور في تعريفه مفهوم مصطلح القصد لغويًا[8]

يفيد مصطلح" القصديّة"، إذًا، السعي والإبانة والكشف بفكر حجاجيّ برهانيّ، فلا معرفة بقصديّة خطاب من دون سعي فكريّ،غايته التفسير والوضوح والفهم والإفهام،فينهض المتلقيبما فهمه من قصديّات كلاميّة تؤدي إلى إغناء فكرهبثوابت معرفيّةوأخلاقيّة وإنسانيّة، وبخاصة ما كان خطابًا إنسانيّا كونيًّا نطقت به ذات نبي قال عن نفسه:"أوتيت جوامع الكلم، واختُصر الكلام لي اختصارًا"[9].

تؤكّد قراءة الأحاديث النبويّة الشريفة تمايزها اللغويّ والنحويّ والتركيبيّ والبلاغيّ والدلاليّ،بوصفها، أولاً، فعلاً تواصليًّا بين مرسل / نبي ومتلقٍ راغب في فهم مقاصد رسول بُعث بالحقّ ليهدي الناس أجمعين،وثانيًا، خطابًا دينيًّا، قوامه لغة فصيحة تعالقت عناصرها وفق قوانين نحويّة علميّة منحت النصّ اتساقًا لغويًّا مشحونًا بدلالات ومقاصد تسعى الدراسة إلى معرفتها من خلال قراءة بعض الأحاديث قراءة لسانيّة.

الحديث الأوّل

"إنَّما أنا بَشَرٌ وإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، فأقْضِي علَى نَحْوِ ما أسْمَعُ، فمَن قَضَيْتُ له مِن حَقِّ أخِيهِ شيئًا، فلا يَأْخُذْهُ فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ"

بُني هذا الحديث النبويّ الشريف على إحدى عشرة جملة، جاء ثمانٍ منها لإخبار، وثلاث لخدمة

[5]–صحيح البخاريّ، ص1479

[6]–الموطأ: 808

[7]– النحل: 9

[8]–ابن منظور، لسان العرب،دار صادر بيروت، مج3، ص353.

[9]–صحيح البخاري2977– صحيح مسلم 532

فعل الشرط وجوابه، ولهذا العدد قصد دينيّ يجوز ربطه بتحقّق رؤيا يوسف عليه السلام" رأيت أحد عشر كوكبًا" [10]، والمعنى الظاهر يشير إلى رؤيا قانونية وإنسانيّة وحضاريّة رغب الرسول" عليه الصلاة والسلام" في تكريسها حقيقة وقانونًا يحرّر الناس من التلفيق والكذب، ويمنعهم من استخدام الفصاحة للغش والخداع، لأنّ النار مثوى من يوظّف نعمة النطق والبلاغة والفصاحة في التلفيق وتزوير الحقائق.

تظهر متوالية الأفعال الكلاميّة من خبرية وإنشائية أنّ ظاهر النص لا يتناقض مع ما أضمره من قصديات لا حصر لها، ومنها:

- حصر طبيعة الرسول بالبشريّة لكيّ يكون الكمال والعبادة لله وحده؛ فالله يعلم الغيب وما استتر في النفوس والعقول.
- إيمان الرسول بأن النبوة لا تنفي الطبيعة البشريّة عن الأنبياء، ومن سمات هذه الطبيعة التفاعل النفسيّ مع المسموع والتأثر.
- تأثرالرسول بفصاحة المرسل، بوصفه بشرًا،فيقضي على نحو ما يسمع.
- التخاصم بين أبناء البشر أمرٌ طبيعيّ، وحلّ المشاكل لا يكون بالاقتتال بل باحترام القضاء، وانتظار الحكم العادل من رجل عدل.
- تأثير الفصاحة في طبيعة الحكم الصادر وجوهره، لأنّ الفصاحة تمنح صاحبها القدرة على إبلاغ الرسالة بشكل واضح فيتأثر المتلقي، وهذا التأثير واضحٌ وبيّنٌ في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام:" قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي* يَفْقَهُواْ قَوْلِي* وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً* قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى*، وفي طلب موسى " احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي" تأكيد دور الفصاحة في عملية الإبلاغ والتبليغ، لذلك كان الطلب مستجابًا" قد أوتيت سؤلك يا موسى"، فالرسول" عليه الصلاة والسلام"يكشف عن تأثير الفصاحة في إصدار الحكم، وكان معينه في إبلاغ رسالته هذه فكرٌ حجاجيّ منطقيّ برهانيّ مستند إلى كتاب الله جلّ وعلا.

[10]–يوسف:

- عدم توظيف نعمة الفصاحة والبلاغة في الغش والكذب والتدليس والاستيلاء على حقوق المظلومين الأقل قدرة على شرح قضاياهم وتوضيح حقوقهم.
- تأثرحكم القضاة بكلام أحد المتخاصمين، فيحكمون بما يسمعون، من دون توظيف معارف دينيّة كرّسها "عليه الصلاة والسلام" ثوابت قانونيّة يستند إليها القاضي قبل إصدار حكمه، ومن هذه المعارف ما تضمّنه الحديثمن إشارات قانونيّة زمانيّة ومكانيّة، تعين القاضي على إصدار حكم عادل بعيد من الأخذ ببلاغة أحد الطرفين.
- تحكيم ضمير كل طرف من أطراف القضية المتنازع عليها، لأنّ الله جلّ وعلا يعلم ما في الصدور، والرسول "عليه الصلاة والسلام" سيكون خصم الظالم يوم القيامة، وستكون النار مصيره.
- ضرورة الاعتراف بالخطأ والسعي إلى تصحيحه، وهذه الضرورة تجسّد قانونًا اجتماعيّا وانسانيّا وحضاريًّا؛ لأنّ الاعتراف بالخطأ فضيلة، وله منافع نفسيّة وقيميّة وتنمويّة ونهضويّة، فالإنسان القادر على الاعتراف بالخطأ إنسان مؤمن وواعٍ ومثقف وحضاريّ، وشعاره في بلوغ غايته نظافة الطريق التي سلكها ليحقّق طموحاته وتنمية قدراته والنهوض بمهامه، من دون تدليس أو كذب وادعاء وتلفيق.
- منزلة الرسول عند ربّ العالمين، وهذه المنزلة العالية تسمح له أن يعاقب،وأنيقتطعللكاذب المنافق قِطْعَةً مِنَ النَّارِ.
- التمسّك بالقيم الأخلاقيّة والدينيّة التي جاء بها رسول قال عنه جلّ وعلا" وإنّك لعلى خلق عظيم"[11].

تضمر بنيات هذا الحديث مقاصد لا حصر لها، وهذه المقاصد يظللها تماسك نصيّ،متمايز بالاتساق والحجة والمنطق، وهذا بيّن وظاهر في ترتيب الأفعال الموظّفة منطقيًّا، وفيالإحالات والحذف والشرط والجزاء، ففي قوله:" وإنّما أنا بشرٌ" إحالة على موقف خارجيّ يوحيبحوار تضمّن أسئلة وتخصيصًا ومدحًا، قبل أن ينطق الرسول بالحديث، فجاء توظيفه كلمة" إنّما" التي تفيد التأكيد والكف عن العمل، دليلاً واضحًا على تأكيد بشريته وحصر قدرة المعارف الغيبيّة بالله وحده، رغبة منه في كفّ المحاورين عن وضع

[11]-سورة القلم: آية 4

فرضيات غير صحيحة، وربّما كان منها اعتقاد بعضهم أنّ الرسول قادر على معرفة الحقّ وأهله، وعليه، إذًا، أن يحكم بالحق.وربّ احتجاج على حكم قضى به الرسول جاءت نتيجته ظلم البريء، وربما كان المقام الخارجيّ يستر تعظيما وتأليهًا للرسول فاستخدم أداة الحصر" إنّما"، ليثبت في أذهان المتلقين الطبيعة البشريّة للرسل، غير أنّ أداة الحصر الثانيّة" فإنّما" المرتبطة نحويًّا بفاء جزاء واجبة، تؤكّد مكانة الرسول عند رب العالمين، وقدرته على الاقتصاص من أصحاب النفوس الضعيفة الظالمين، ليكفّ الآخرون عن تأويلات ناقصة، فكان لهذه الأفعال قوة إنجازية تشير إلى حصر دور النبي الدنيويّ في تكريس مكارم الأخلاق أسسَ حياة وقانون تعامل حضاريّ، وفي نشر مبادئ الإسلام، وفي الدعوة إلى المحبة والصدق ونبذ التباغض والغش.

تضمّنت تراكيب سياق الحديث أفعالاً كلاميّة ظاهرة ومقدرة، لها قوة إنجازيّة أنطقت السياق بمعانٍ محتجبة وراء ظلال التراكيب، وكان للحذف دور بارز في مروحة التأويل، فحذف فعل الشرط في قوله " عليه الصلاة والسلام:" فمَن قَضَيْتُ له مِن حَقِّ أخِيهِ شيئًا، فلا يَأْخُذْهُ فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ" ، يحيل على تأويلات منها:"وإنأخذه/ وإن ظلم/ فسوف يتطور حصر الطبيعة البشرية إلى الكشف عن قدرته" صلّى الله عليه وسلّم" على المحاكمة الإلهيّة التي تخوّله أن يحشر الكاذب المنافق الظالم في نار جهنم، لما أعطاه الله من صلاحيات وشفاعة يوم القيامة.

الحديث الثاني:

"بينَما رجلٌ يمشي بِطريقٍ اشتَدَّ بهِ العَطش، فوجدَ بئرًا فنزلَ فيها، فشرِبَ ثمَّ خرجَ ، فإذا كلبٌ يلهَثُ ، يأكُلُ الثرَى من العَطشِ ، فقال الرَّجُلُ : لقد بلغَ هذا الكلبُ من العَطشِ مِثلَ الَّذي كان بلغَني، فنزلَ البِئرَ فملأَ خُفَّهُ ثمَّ أمسكَه بفيهِ فسَقَى الكلبَ فشكرَ اللهُ لهُ ، فغفرَ لهُ . قالوا : يا رسولَ اللهِ و إنَّ لنا في البهائمِ أجرًا ؟ قال : في كُلِّ كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ "

بُني هذا الحديث النبويّ الشريف على أفعال قوللغويّة، قوامها أصوات، لكلّ منها حيّزٌ فيزيائيّ زمانيّ، له تأثيره في ذهن المتلقي، وحيزٌ كيميائيّ مكانيّ يمنح الحروف طاقة تواصل، نتج عنها توظيف عدد لا متناه من الكلمات التي شكّلت بتفاعلها وتعاضدها سياقات نصيّة، أساسها اللغويّ مفردات وجمل وتراكيب خاضعة لقوانين نحويّة منحت الكلّ السياقيّ تماسكًا مشحونًابالدلالات والأهداف والمقاصد.

وظّف الرسول"عليه الصلاة والسلام" في حديثه هذا جملاً خبريّة، وجملة واحدة إنشائيّة، وبدأ الحديث بمصطلح معجميّ/ لغويّ دالٍ على زمن غير مقيّد ، وذكر بعده اسمًا جامدًا نكرة مرفوعًا دالاً على السبق والإسناد؛ فكلمة "رجل" اسم ذات، وأسماء الذوات أصل سابق وثابت، والنكرة أصل سابق المعرفة، والرفع علامة الإسناد، وفي هذا إشارة إلى إنّ دلالة الحديث أصل ثابت يستند إليه في كلّ زمان ومكان، لأن الفعل"

يمشي" الذي ورد بعد كلمة " رجل" يحمل دلالة الحاضر المستمر غير المقيد بزمان مضى، أي أنّ المقاصد غير مقتصرة على زمان و مكان محدّدين، وإنّما هي أسسٌ لحضارة إنسانيّة ثابتة في دلالاتها وأبعادها وقصديّاتها الزمكانيّة.

تكشف البنيات اللغويّة أنّ الأفعال الكلاميّة تتابعت بتنظيم وترتيب، ولا يمكن تقديم فعل على آخر، "فالرجل يمشي بِطريقٍ اشتَدَّ بهِ العَطشُ، فوجدَ بئرًا فنزلَ فيها، فشرِبَ ثمَّ خرجَ"، فالأفعال تحمل دلالة المتوالية اللغويّة المنطقيّة " يمشي- اشتد العطش- وجد بئرا- نزل- شرب- ثمّ خرج"، وفي هذا الترتيب توصيف سرديّ دقيق وواضح، له دلالات ومقاصد وغايات وأهداف متنوعة.

تنطق الجمل الخبريّة، إذًا،بدلالات تقولُها بنية سردية منظّمة ومرتّبة ومتماسكة، فلميذكر" عليه الصلاة والسلام" الفعل"خرج" قبل الفعل "نزل" لكي تبقى الأفعال متتابعة في عملية سرديّة، تتمايز ببنية لغويّة تماسكت تراكيبها برابطين لغويّين، هما "الفاء" و"ثم"، فحرف الفاء أشار إلى الترتيب والتعقيب، فالأحداث الفعلية مرتّبة متعاقبة من دون فارق زمنيّ" نزل- شرب"، ولكن الخروج لم يكن عقب الشرب ، وفي هذا إشارة إلى حذف يحيل على تصور ذهنيّ / عقليّ يخبر عن صلاة شكر قام بها الرجل بعدما ارتوى، ولذلك وظّف" عليه الصلاة والسلام" حرف العطف" ثمّ" الدال على الترتيب والتعقيب مع تراخٍ في الزمن.

يؤكّد تتابع الأفعال الكلاميّة إيمان الرجل بقوله جلّ وعلا" ما من دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها"[12]؛فالرجل خرج من البئر بعدما ارتوى ولم يملأ خفه ليكون له عونًا على الظمأ في أثناء سيره، لأنّه مؤمن بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولقد ترسّخ إيمانه عندما عاد إلى البئر، وملأ خفه ماء ليزيل ظمأ كلب يلهث من شدة العطش، وربّما كان في الكلام على سعي الرجل وعطشه ووجود البئر إشارة إلى ظمأ هاجر وسعيها، فكان بئر زمزمتكريمًا ورحمة من إله قادر رحيم عليم سميع لا يضيع أجر الساعين المؤمنين الصالحين، وبهذه الرحمة الإلهيّة وجد الرجل البئر.

تحيل أفعال الحديث الكلاميّة على ثوابت إيمانيّة لم يصرّح بها الرسول" صلّى الله عليه وسلّم"، وترك الباب مفتوحًا على ابتكار فرضيات من سياق نصيّ موسوم بتماسك تراكيبه وبحذف مقصود، غايته الاختزال ومروحة الدلالة، وهذا ما فسّره حرف العطف" ثم" الذي أفاد دلالة التراخي في الزمن، فكانت فرضية تقول إنّ الرجل شكر ربه بعد الارتواء، والشكر ثوابه الزيادة" ولئن شكرتم لأزيدنكم"[13]،وهذه الزيادة

_12

13-سورة إبراهيم: الآية 7

حقّقها سعي الرجل وتقديم الماءلكلب كان يلهث من شدة العطش، لم يبصره الرجل قبل نزول البئر بل بعدما ارتوى وشكر وخرج، وفي هذا الأداء الحركيّ قوة إنجازيّة تضمرفعلاً إيمانيًّا يرسّخ نعمة الشكر وجزاء السعي.

منح الحذف النصّ أبعادًا تأويلية، فالجملة التي وقع فيها الحذف" ثمّ خرج"، غير مكتملة من حيث البنية النحويّة، ولكنّها مكتملة دلاليًّا، فالرجل شكر،ولم يملأ خفه بعدما ارتوى، لأنّه مؤمن بأنّ الله يهيّئ الفرج للمؤمنين الساعينالمواظبين على سير مصحوب بالظمأ، وربّما كان لمصطلح الظمأ دلاليّة ضمنيّة تشير إلى ظمأ معرفيّمنح الرجل القدرة على شكر متواصل ضاعف من حسناته، فأفادت المتوالية الكلاميّة السرديّة توصيفًا معنويًّا وفكريًّا وإيمانيّا.

أظهر ترتيب الأفعال سردًا واضحًا ومعبّرًا عن حال الرجل السائر الظمئ، فتجاوزت الصورُ اللغويّةُ الوصفَ الماديّ، إلى وصف أخلاقيّ ودينيّ وحضاريّ، تجلّىفي خلال وصف حال الكلب الظمئالذيكان يلهَثُ، ويأكُلُ الثرَى من العَطشِ، فأقام الرجل موازنة بين حاله وحال الكلب لحظة العطش، وفي هذه المقابلة سمو فكريّ وحضاريّ وأخلاقيّ.

أضمرت متوالية الأفعال الكلاميّة طاقة إخباريّة، غايتها التأثير في المتلقين، وظهر التأثر والتأثير في سؤالهم:"يا رسولَ اللهِ و إنَّ لنا في البهائمِ أجرًا؟"، فجاء جوابه إخبارًا يحمل دلالة التأكيد:"في كُلِّ كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ"، وكان لفعل النداء وللاستفهام المقدّر قصد نفسيّ حكائيّ، غايته التوضيح والتأكيد والفهم، فتجاوزتالأساليب دلالة الطلب والاستمالة،وأكسبها السياق قصديّة الفهم والإفهام.

تظهر قراءة هذا الحديث النبوي الشريف، لغويًّا ونحويًا، أنّ كلامه "عليه الصلاة والسلام" يضمر قصديات لا حصر لها، ومن أهمها:

- الدعوة إلى العمل والسير إلى الأمام " يمشي".
- السير الدؤوب مقرون بالظمأ، ومن ظمئ بعد جهد وعناء يفتح له الله أبواب رحمته، فيطفئ ظمأه من ماء بئر.
- الارتواء لا يكون من دون عطش ورغبة وجهد وتواضع" نزل".
- ربط الارتواء بقناعة تبعد الطمع فلا يأخذ الإنسان إلا حاجته، من دون تجميع وتكديس، ولذلك لم يستعمل الرجل خفه ليحفظ الماء في أثناء سيره، لأنّه مؤمن بأنّ الله سيضع في طريقه ما يروي ظمأه عند الحاجة.
- الرفق بالحيوانات، ومعاملتها بلطف، وتقديم المساعدة لها.
- تمايز حديث الرسول بالقدرة اللغويّة السرديّة، وتوظيف الحكاية وتبسيطها لتصل دلالاتها

إلى قلوب المؤمنين.

-تواضع الرسول وفتح باب الأسئلة والحوار.

- القدرة التأثيريّة في نفوس بني البشر في كلّ زمان ومكان.

-الإشارة إلى أصحاب الشأن بأن يفتحوا باب الحوار ليكون للإفهام والتفهيم فائدة كبيرة.

الحديث الثالث:

"إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمَ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فكانتْ مِنها طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكَان مِنها أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وسَقَوا وَزَرَعُوا، وأَصَابَ طَائِفَةً مِنها أُخْرَى إنَّما هِي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ"

بُني الحديث النبوي الشريف على جمل إخباريّة تؤكّد تنوّع الطبيعة البشريّة الإيمانيّةوالمعرفيّة والفقهيّة،فالنوع الأوّل من بني البشرشبيه بأرض خصبة طيّبة مباركةتضاعف طبيعتُها من نتاج بذارها، ولذلك شبّه" عليه الصلاة والسلام " أبناء هذه المجموعة بأرض خصبة لما يتمتعون به من طاقات فكريّة قادرة على تلقي المعرفة والعلوم، وفهمها ومن ثمّ توظيفهاونشرها وتثميرها،ليكون فيها الهداية والخلاص على مرّ الأجيال. أمّا النوع الثاني فأبناؤه أشبه بأرض صلبة تجمع الماء وتحفظه ليرتوي به العابرون، فلهؤلاء فضل الجمع والتخزين، وليس لهم فضل النشر والتثمير، وربّما كان الفضل لمن سيرتوي من هذه المعرفة ويوظّفها، أمّا المجموعة الثالثة فأبناؤها أشبه بقيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فهؤلاء لا يمتلكون نعمة الفهم والإفهام والهداية، ولا نعمة الجمعوالتخزين.

لقد تحدّث المسيح" عليه السلام"، أيضًا، على أنواع البشر في مثل الزارع[14]، ورأى أنّ البذار التي

[14]-**مَثل الزارع13 فِي ذَلِكَ الْيَوم خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ وَجَلَسَ عَلَى شَاطِئِ الْبُحَيْرَةِ. 2 فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ، حَتَّى إِنَّهُ صَعِدَ إِلَى الْقَارِبِ وَجَلَسَ، بَيْنَمَا وَقَفَ الْجَمْعُ كُلُّهُ عَلَى الشَّاطِئِ. 3 فَكَلَّمَهُمْ بِأَمْثَالٍ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، قَالَ: «هَا إِنَّ الزَّارِعَ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ. 4 وَبَيْنَمَا هُوَ يَزْرَعُ، وَقَعَ بَعْضُ الْبِذَارِ عَلَى الْمَمَرَّاتِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَالْتَهَمَتْهُ. 5 وَوَقَعَ بَعْضُهُ عَلَى أَرْضٍ صَخْرِيَّةٍ رَقِيقَةِ التُّرْبَةِ، فَطَلَعَ سَرِيعاً لأَنَّ تُرْبَتَهُ لَمْ تَكُنْ عَمِيقَةً؛ 6 وَلكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، احْتَرَقَ وَيَبِسَ لأَنَّهُ كَانَ بِلا أَصْلٍ. 7 وَوَقَعَ بَعْضُ الْبِذَارِ بَيْنَ الأَشْوَاكِ، فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. 8 وَبَعْضُ الْبِذَارِ وَقَعَ فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ، فَأَثْمَرَ بَعْضُهُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَبَعْضُهُ سِتِّينَ، وَبَعْضُهُ ثَلاثِينَ. 9 مَنْ لَهُ أُذُنَانِ فَلْيَسْمَعْ!»**

تقع في الأرض الجيدة يثمر بعضُه مائة ضعفوَبَعْضُهُ سِتِّينَ، وَبَعْضُهُ ثَلاثِينَ، أي أنّ التمايز الانتاجيّ مقرون بمدى صلاحية التربة المعرفيّة والإيمانيّة، أي ربط قوة الإنتاج والاستثمار باختلاف الطبيعة البشرية، وتفاوت الطاقات الاستيعابيّة والإيمانيّة والمعرفيّة.

يوحي تقسيم بني البشر ثلاثة أنواع بتأويلات لا حصر لها، ومنها الإيمان المطلقبمشيئة خالق عادل منح الإنسان نعمة العقل وترك له حريّة الخيار في تلقي الهداية والعلوم، ومن ثمّتكريس حريّة الخيار فعلاً حضاريًّا وإنسانيًّا وإيمانيًّا ومعرفيًّا وإنمائيًّا،وهذا التأويل يمهّد إلى استنباطِه كلامُ الرسول" صلّى الله عليه وسلّم" في مستهل خطابه على أنّ الله جلّ وعلا اختاره وبعثه رسول هداية وعلم إلى الناس كافةً، وأنّ الغاية مما بُعث به من الهدى والعلم تتطلّب إحياء نفوس بني البشر، وحضّها على السعي ونشر المعرفة في كلّ أرضٍ على الرغم من معرفته" عليه الصلاة والسلام" بتفاوت ملكات المتلقين وقدراتهم وطاقاتهم.

يؤكّد الرسول" عليه الصلاة والسلام" في حديثه عظمة ما أُرسَل به، ومقدار قبوله واستثماره في نفوس بني البشر، فرسالته غيث محيي بعد عطش، ولكنّ الفوائد ليست واحدة؛ لأنّ أبناء البشر متفاوتون من حيث طبيعة الاستقبال والقبولوالتوظيف والاستثمار والاستنبات، فشبّه " صلّى الله عليه وسلّم" اختلافهم من حيث القدرة الإحيائيّة بطبيعة البيئات الجغرافيّة من حيث الإفادة من الماء أو من حيث تخزينه، أو من حيث احتباسه وهدره.

اتسم الحديث ببنيّة لغويّة نصيّة متماسكة اختزلت تأويلات تعجز قراءة واحدة عن القبض عليها ، وربّما استطاعت هذه القراءة أن تستنبط بعض الدلالات والمقاصد والغايات والأهداف، ومنها:

- إسناد الأحاديث النبويّة الشريفة إلى مشيئة إلهيّة أنطقت الرسول "عليه الصلاة والسلام" بما بعثه الله به من هداية وعلم.
- هدف الرسالة المحمديّة ترسيخ مفهومي الهداية والعلم بين أبناء البشر من دون تمييز.

-تشبيه كلامه " عليه الصلاة والسلام" بغيث يسّاقط معرفة، ولا يفرّق بين إنسان وآخر، كالغيث المتساقط من السماء من دون تمييز بين تربة وتربة.

-غيث خطابه" عليه الصلاة والسلام" محيي النفوس المؤمنة؛ لتزداد معرفة وعطاء، وهذاالغيث المحيي شبيه بغيث يرسله الله ليحيي به الأرض، فتُنبت الكلأ والعشب الكثير.

-التركيز على أنّ الأحاديث النبويّة الشريفة لها قيمة الكلام المنزَّل من السماء، فهي أشبه بغيث مسّاقط رحمةً لبني البشر وإنقاذًا لهم من الظمأ والجوع.

-تخصيص الرسالة المحمديّة برحمة تشمل جميع البشر من دون تمييز.

-الإشارة إلى أنّ الإحجام عن الهداية والعلم ليس من خللٍ في طبيعة الخطاب، وإنّما في علة تخصّ طبيعة المتلقيّ، ولذلك يجب ألاّ يُصاب المؤمنون بالحزن والإحباط نتيجة غياب الفاعلية من نفوس بعض الفئات الاجتماعيّة.

-دعوة المؤمنين إلى تلقي الرسالة المحمديّة وفهمها وتبليغها ونشرها ليكون بها الهداية وحسن الخلاص.

الحديث الرابع:

" ليسَ المِسْكِينُ الذي يَطُوفُ علَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، ولَكِنِ المِسْكِينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، ولَا يُفْطَنُ به، فيُتَصَدَّقُ عليه، ولَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ"

بُني الحديث النبوي الشريف على نسقين لغويين متقابلين، أولهما يقوم على التعريف بالمسكين من خلال تراكيب لغويّة، قوامها أربع جمل فعليّة، واحدة فعليّة/ اسميّة وظيفة فعلها النفي، وجملتان فعليتان مكتملتان من حيث البنية الإسناديّة الظاهرة " يطوفُ.._ تردّه..."، وجملة فعليّة حذف منها الحدث المسند " ...اللقمة واللقمتان"، وثانيهما على التعريف بالمسكين من خلال تراكيب لغويّة ، قوامها جملة اسمية واحدة مسبوقة بحرف استدراك غير عامل، وست جمل فعليّة، ثلاث منها منفية"لايجدُ-لا يُفطن-لا يقوم" وثلاث مثبتة"يغنيه-يتصدق-يسأل".

يظهر النسق التركيبيّ الأوّل نفي الصفات الظاهرة بفعل جامد يتسم بالثبات من حيث الطبيعة الصرفيّة، وبالنفي من حيث الوظيفة الدلاليّة، وبالنقص من حيث الوظيفة النحويّة، فهو، إذًا، فعل جامد ثابت دالٌ على النفي وعلى ضعف الإسناد من دون إخبار، ولذلك بدأ الخطاب النبويّ بهذا الفعل ليؤكّد نفي الظاهرة المرئية بالعين ونقص دلالتها من دون الإخبار عن ظاهرة الطواف،" يطوف على الناس" التي شكّلت ثابتًا اجتماعيًّا يعتمده الناس من أجل تقديم العون والمساعدة لشخص عابرٍ يظهر الحاجة ف " تردّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان"، وكذلكأفاد الفعل الناقص" ليس" نفي ضعف إسناد الرواية السائدة في المجتمعات، فكان لفعل النفي /الثابت/ الناقص الإسناد قوة دلاليّة نفت الصفات والمظاهر المتعارف عليها، فالمسكين الحقيقيّ لايطوف بين الناس مظهرًا جوعه، ومضحيًّابعزة النفس وبالكرامة مقابل لقمة يسدّ بها جوعه، فكان لفعل النفي فاعلية جبريّة نفت حقيقة أي حدث مُسَند إلى المسكين، وذلك وفق هذه المعادلة:

ليس المسكين الذي(يطوف على الناس+ ترده اللقمة واللقمتان+ ترده التمرة والتمرتان).

جاء النفي قبل أفعال دالة على السلب إثباتًالصفة المسكين الحقيقيّة، فهو لا يطوف على الناس،

ولا ترده اللقمة واللقمتان، ولا ترده التمرة والتمرتان، لأنّه يرفض التجول بين الناس طالبًا المساعدة، ويرفض، أيضًا، أن يُنظر إليه نظرة دونيّة، فهو إنسان صابر كريم النفس عزيزها، لا يقبل بالفتات، ولا يرضى أن يضع نفسه في موقفٍ غير إنسانيّ.

تضمّن النسق اللغويّ الموازي سبع جمل، جملة اسميّة مسبوقة بحرف استدراك، وست جمل فعليّة، ولقد جاء خبر المسند إليه اسمًا جامدًا يحتاج إلى صلة وصل ليتمّ المعنى، فتوالت ثلاث جمل فعليّة منفيّة أفادت الأولى صلة الوصل الاسميّ لاسم موصول ظاهر وأفادت الجملتان المعطوفتان وظيفة الصلة لاسم موصول محذوف" الذي لا يجد_ الذي لا يُفطن إليه- الذي لا يقوم" فملأ حرف العطف النقص ومنح السياق قوة تماسك وربط، وهذه التماسك ساعد في إخراج الصوة الحقيقيّة والناطقة بصفات مسكين ستر حاجته بالعفة والكبر.

بُني الحديث، إذًا، على إحدى عشرة جملة، تسع منها موزعة ثلاثًا ثلاثًا، ولهذه الأعداد رمزيتها، فالعدد الحادي عشر له رمزٌ دينيّ تقوله رؤيا يوسف "عليه السلام"، وللعدد تسعة صفة الاكتمال والتوليد، فمن الأعداد من واحد إلى تسعة تتوالد الأعداد كلّها، وكذلك العدد ثلاثة له خصوصيّة بنائية وهندسيّة ودينيّة، ومنها على سبيل المثال أنّ ثلاث النقط الهندسيّة يمكنها أن تشكّل مساحات متنوعة وغير محددة، وأنّتلاوة أي آية قرآنيّة يجب أن تبدأ ب:باسم" الله- الرحمن- الرحيم" وأنّ الصلاة المسيحيّة تبدأ باسم" الآب والابن والروح القدس"؛ أيّ أنّ البنية اللغويّة المتماسكة والمتوازنة أضمرت من حيث نسق تراكيبها واتساقها دلالات روحيّة وقيمًا اجتماعيّة وإنسانيّة تحتاج إلى الكشف، ومن ثمّ اعتمادها أساسًا ثابتًا وأصيلاً في المجتمع.

يرسم التركيبان اللغويان المتوازيان صورة واضحة وشفّافة للإنسان المسكين، فينفي عنه الصفات الماديّة، فهو غير متسوّل، و"يبيت على الطوى حتى ينال به كريم المأكل"، فلا يعنيه أن يملأ معدته طعامًا، لأنه عفيف النفس عزيزها، وهو المحتاج غير الممتلك شيئًا يغنيه، ومع ذلك يستر جوعه ولا يطوف ولا يبرز حاجته، ولذلك لا يفطن إليه من يقدّم الصدقات لأنّ أبناء المجتمعات يتأثرون بما يبصرون، والمسكين يتخّفى ويستر حاجته بصبر وكبر، لذلك لا يقوم إلى الناس ليطلب منهم ما هو بحاجة إليه.

تظهّرَ الوصفُ الدقيق من خلال بنيات لغويّة جبريّة موجبة وسالبة، فالفعل السالب الدلالة، نفى الصفات المتعارف عليها في المجتمع، فجاء تأويل السلب ليبعد عن المسكين صفة التسوّل وبذل ماء الوجه، وأفادت أداة النفي"لا" المكررة ثلاث مرات نفي حدوث وجود الغنى وحدوث الفطنة في المجتمع، و ونفت قبول القيام إلى الناس من أجل طلب العون والمساعدة، فأفاد تكرار النفي تثبيت الصفات القيميّة والأخلاقيّة والإنسانيّة التي يتحلّى بها المسكين:

ليس / المسكين الذي _____يطوف على الناس
ترده اللقمة واللقمتان
ترده التمرة والتمرتان
لكن/ المسكينالذي____ لا يَجِدُ غِنًى_____ يُغْنِيهِ
لَا يُفْطَنُ به_____فيُتَصَدَّقُ عليه
لا يَقُومُ_____ فَيَسْأَلُ النَّاسَ

فالمسكين الحقيقيّ، إذًا، لايجد غنى يغنيه + لا يقوم فيسأل الناس= لا يفطن به= لا يتصدق عليه

والنتيجة= الصبر وحفظ الكرامة، ولذلك أوحى الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المؤمنين بأن يفتشوا عن المحتاج الساتر حاجته بالعفة والصبر، وألاّ يؤخذوا بما ظهر وتبدّى، بل بما استتر واحتجب عن العيون.

تعاضدت تراكيب الحديث النبوي الشريف، ظهورًا وتقديرًا وحذفًا، فأفادت البنية اللغويّة الجبريّة المتماسكة اتساعًا في التأويل والتقدير،وأنطقتها روحيّة الرسالة بمقاصد وغايات وأهداف ظاهرة ومضمرة، ومنها:

- التمييز بين المتسوّل والمسكين.
-عدم الاكتفاء بما تبصره العين، بل إخضاع ما يُرى للبصيرة.
-رفض ظاهرة التسوّل؛ لأنّها تفقد الإنسان عزة النفس" تردّه"، وتحوّلها إلى كائن ماديّ لا كرامة له.
-التفتيش عن أصحاب النفوس الكبيرة المعوزين، وتقديم العون لهم سرًّا، واحترام عزة نفوسهم.
-تثبيت قيم الصبر وعزة النفس وتأصيلها في نفوس أبناء الحياة.
- أن تكون أحاديث النبويّة الشريفة أصلاً ثابتًا في الحياة.

الحديث الخامس

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، جائزته يومٌ وليلة، وضيافته ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يُحلّ له أن يثوي عنده حتى يُحرِجَه"[15]

[15]-الموطأ: **808**

يحيل مطلع الحديث على فرضيات،قوامها سياقات مقاميّة خارجيّة توحي بأحوال متلقي الحديث لحظة إنشاء الخطاب الديني/ الاجتماعيّ/ الإنسانيّ، فربّ مستفسر كريم النفس، وليس لديه فائض ماديّ أراد أن يتأكّد من قدرته على تحمّل إقامة ضيف في دياره، وربّ سائل عن استمرار المسلمين في التحلّي بأخلاق العرب في الجاهليّة، ومنها إغاثة الملهوف وإكرام الضيف، وربّ فرضيات أخرى لها علاقة بأحوال المقام، فجاء جوابه "عليه الصلاة والسلام" مبتدئًا باسم شرط جازمأكّد فعله الشرطي ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر، وجاء جوابه صيغة أمر مقترنة بفاء رابطة الفعل بالجواب؛ أي أنّ إكرام الضيف واجب دينيّ وأخلاقيّ، ولكنّ هذا الواجب لا يحمّل المضيف أعباء طويلة الأمد، فالضيافة لها مدة محدودة بيوم وليلة، بيّنها الرسول" عليه الصلاة والسلام" من خلال خطاب لغويّ متماسك بروابط وقوانين نحويّة.

بدأ الحديث النبويّ الشريف باسم شرط جازم، له خصائص نحويّة ودلاليّة وصرفيّة، فهو اسم جامد مبنيٌّ دالّ على عاقلٍ، ويفيد الشرط، ويحتاج إلى فعل وجواب، أساس ورودهما أن يكونا فعلين مضارعين مجزومين، ولكن يمكن أن يردا في صيغ أخرى تفرضها الدلالة السياقيّة، وهذه الدلالة تمظهرت من خلال توظيف جواب شرط خارج على القانون النحويّ الكليّ العام، فورد جملة طلبيّة مسبوقة بفاء الجزاء، أي أنّ الجواب جاء جزءًا من كلّ، وفي هذا التركيب النحويّ دلالة على أنّ إكرام الضيف جزء من القانون الإيمانيّ الكليّ، وليس الكلّ، وأنّ الإسلام كرّس جزءًا من الأعراف الجاهليّة بوصفها قيمًا اجتماعيّة وإنسانيّة وحضاريّة

يتمايز الاسم الجامد" من" الوارد في بدء الحديث بثلاثية دلاليّةمتمركز فيمفهوم السبق والأصالة؛ فالاسم سابق الأفعال وحروف الربط، من حيث الوضع، والجامد أصل ثابت غير قابل التحوّل، والبناء، أيضًا، أصل ثابت غير قابل التغيير، أي أنّ ما سيرد بعد هذا الاسم من أفعال كلاميّة ستبقى قوتها الإنجازيّة ثابتةمن حيث السبق والأصالة الإيمانيّة.

وظّف" عليه الصلاة والسلام" في خطابه أداة الشرط "من" ليبيّن طبيعة السائلين/ المتلقين، فهم يتمتعون بالعقل والرشد، واستخدم بعد اسم الشرط الدال على العاقل فعلاً مضارعًا مجزومًا؛ ليكون الإيمان بالله واليوم الآخر شرطًا مستمرًا فعلُه في الآتي وفي نفس كلّ متمسّك بالقيم الأخلاقيّة الإسلاميّة، وجعل جواب الشرط فعلاً مضارعًا مسبوقًا بلام الأمر، ليكون استمرار إكرام الضيف أمرًا يحمل دلالة الواجب على كلّ مؤمن.

أفاد، إذًا، أسلوب الشرط ربطحسن الضيافة بالإيمان، غير أنّ التراكيب الواردة بعد أسلوب الشرط تضع أسسًا وقوانين وأعرافًا اجتماعيّة منطقيّة توصّف مفهوم الضيافة بأرقام حسابيّة تضبط مفهوم حكم الضيافة بين الواجب والكمال والصدقة، فالواجب الدينيّ والاجتماعيّ والأخلاقيّ يفرض على المضيف أن

يهتمّ بضيفه، ويتحفه بما لديه من برّ وخير، ويخصّه بالتقدير والاحترام مدة يوم وليلة، لأنّ إكرام الضيف من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكنّ هذا النوع من التكريم، له حدود زمنيّة،فإذا تجاوزها الضيف، تحوّلت الضيافة من الواجب إلى الكمال، فيُطعم مما تيسّر للمضيف وأهل بيته، من دون زيادة في الإنفاق، شريطة ألاّ يتجاوز ثلاثة الأيام، ولكن إذاتجاوزت الإقامة الثلاثة أيامًا صارت الضيافة صدقة تمنح المضيف حريّة قبول إقامة الضيف أو رفضها، ولذلك تحوّل الحديث من العام إلى الخاص، فوجّه الرسول"صلّى الله عليه وسلّم" خطابه الدينيّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ إلى الضيف، فحمّل الأفعال مفهوم وجوبالمغادرة، ليكون خفيف الظلّ وغير متسبب بأذى ماديّ أو معنوّي للمضيف، فجاء كلامه حكمًا على الضيف" لا يحلّ"، ورحمة بمضيف تدفعه طول إقامة الضيف إلى التذمر والنيل منه، فيبطل بطول الإقامة ثواب الضيافة والإكرام، وربّما أذنب بكلام يحمل دلالة التذمّر منطول الإقامة.

قام الحديث النبويّ الشريف على بنية لغويّة منطقيّة، حدّدت ثلاث مراتب لإكرام الضيف؛ حق واجب، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات، فالحق الواجب يوم وليلة فقط، والتمام المستحب يومان، وما زاد فهو صدقة، فأضمرت هذه البنية المتماسكة مقاصد وغايات، منها:

-ربط الإيمان بالعقلاء، فالعاقل يؤمن بالله واليوم الآخر.

-وجوب إكرام الضيف، بوصفه واجبًا دينيّا وأخلاقيًّا.

- اقتران إكرام الضيف بحسن الأخلاق التي دعا إليها الإسلام.

- عدم رفض القيم الأخلاقيّة العربيّة الأصيلة التي شكّلت أعرافًا اجتماعيّة قبل الإسلام.

-ضرورة الاحتفاء بالضيف مدة يوم وليلة.

-التخفيف من أعباء الضيافة، بعد مضي مدة الواجب الدينيّ والأخلاقي.

- تخفيف الضغط المادي والمعنويّ عن الإنسان المؤمن، فلا يتحمّل ما لا طاقة له به.

-تنبيه الضيف إلى الالتزام بالأخلاق الاسلاميّة.

-توقّع الخطأ الاجتماعيّ من مضيف أثقلت عليه مدة إقامة الضيف.

- تثبيت قوانين اجتماعيّة/ إنسانيّة.

ثالثًا: فعل قصدية الخطاب النبوي في أبعاده الزمانيّة والمكانيّة

ترتبط هذه الأحاديث، زمنيًّا، بحياة الرسول" صلّى الله عليه وسلّم، ومكانيًّا، بمجتمعات أخرجها الإسلام من الظلمات إلى النور، ولكنّها، حقيقة وفعلاً، أحاديث لا يحدّها مكان أو زمان، لذلك تجاوزت الجغرافيا، وامتدّت في أزمنة ماضية وحاضرة، وستبقى فاعلة في الآتي؛ لأنّ مقاصد الخطاب النبوي الشريف

لم تكن موجهّة إلى مجتمع بعينه، ولم تكن مخصوصة لفترة زمنيّة محدودة، بل جاءت لتخاطب أبناء البشريّة، على مرّ العصور وعلى امتداد الجغرافيات،بهدف تحريرهم من الجهل، وإرشادهم إلى طريق مستقيم فيه الإيمان والخلاص.

بيّنت قراءة بعض الأحاديث النبويّة الشريفة، لغويًّا ودلاليًا، أنّها تتمايز بمقاصد وغايات وأهداف إنسانيّة وحضاريّة ما زالت فاعلة في المجتمعات، لأنّها دعت إلى ترسيخ قواعد معرفيّة ودينيّة تضمن إنسانيّة الإنسان، وتمنحه القدرة على تأدية دوره الوجوديّ والإنسانيّ بمعرفة ووعي وصدق.

رسّخت الصيغ اللغويّة التعبيريّة التي بنيت منها وعليها الأحاديث النبويّة الشريفة مفاهيم وأسسًا وقواعد دينيّة وإيمانيّة وفقهيّة واجتماعيّة وحياتيّة وإنسانيّة وحضاريّةأثبتت فاعليتها في أزمنة وأمكنة لا حصر لها،بوصفها منطوق مُرسِل مُرسَل اختاره الله ليهدي البشر ويدعوهم إلى التحرّر ممّا يسيء إلى إنسانيتهم، ليسلكوا طريق الخلاص، وينالوا ما يستحقونه من أجر وإحسان ومنازل وعِد بها المؤمنون الصالحون الأتقياء.

استخدم الرسول في خطابه جملاً خبريّة وجملاً إنشائيّة، ووظّف التقدير والحذفوعددًا من الأساليب اللغويّة التي أفادت سردًا وعرضًا وإخبارا وتهديدًا ووعيدًا وترغيبًا وترهيبًا ودعوة إلى التحليّ بمكارم الأخلاق وإلى التمسّك بالقيم الدينيّة التي تشكّل واعزًا ذاتيًّا يقي الإنسان من ارتكاب المعاصيومن الإساءة إلى أخيّه الإنسان، فكان لكلّ خطاب قوة تأثيريّة فاعليّة في الزمان والمكان، وهذا ما تبيّن من خلال استنباط قصديات خمسة الأحاديث.

تظهر حركية الحياة حضور قصديات الحديث الأوّل واستمرار فاعليتها المدنية والدينيّة في جغرافيات عربيّة وغير عربيّة، وفي أزمنة ماضية وحاضرة ومستقبليّة، فالقاضي المنتسب إلى أي محكمة محليّة او دوليّة يستند في حكمه إلى أقوال المتخاصمين، فيسعى بما أوتى من عدل إلى تفنيد كلام كلا الطرفين، ومن ثمّ الحكم بمضمون الكلام وليس بظاهره، ولذلك تُحال القضية الواحدة على أكثر من قاضٍ؛ ليكون الحكم صائبًا وعادلاً، ومع ذلك تأتي بعض الأحكام غير دقيقة نتيجة قدرة أحد الطرفين المتخاصمين على التضليل، فيُحكم على البريء وينجو المذنب، ولذلك أكّد" عليه الصلاة والسلام"، بالترغيب، أهمية الأخلاق، وبالترهيب، مخاصمة الكاذب يوم القيامة.

كشفت العلاقات الاجتماعيّة المعاصرة عن دور قصديات مفهوم الحديث الثاني الذي تضمّن دعوة إلى السعي الدائم، وإلى الإيمان بنعم الله وسعة رحمته،وبيّن أهمية الحوار في عملية التواصل الاجتماعيّ، وضرورة الاهتمام بالحيوان، "**يا رسولَ اللهِ و إنَّ لنا في البهائمِ أجرًا؟ قال: في كُلِّ كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ** "، ولقد صار الحوار ركنًا أساسًا في عمليات التواصل الاجتماعيّ، وفي إنتاج الأفكار وتصويرها وتطويرها ونقلها إلى الآخرين؛

ليفيدوا من فكرة ما. وكذلك صار لدلالة الكلام النبويّ الشريف "في كُلِّ كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ" فعلٌ زمكانيّ، مركزيته الأساس الدعوة إلى الرفقبالحيوان التي اتخذت شكل العلاقة الوديّة بين الإنسان والحيوانات الأليفة، وكانت نتيجتها تأسيس جمعيات تعتني بالحيوانات،و من ثمّ إقامة فنادق في بعض المدن الكبيرة ، لتأمين الحماية من الجوع والتعنيف والإهمال والتشرد والقتل العشوائيّ، وضمان الراحة والنظافة والسكينة،ولذلك يمكن القول إنّ لحديث الرسول " صلى الله عليه وسلم" كمونًا إنجازيًّا فاعلًا فيمفاهيم أبناء البشر التي رسخّت نظرة راقيةومختلفة إلى الحيوانات الأليفة.

كشفت قصديات الحديث الثالث عن عظمة الرسالة المحمديّة عبر التاريخ، فالعقيدة الإسلاميّة ما فتئت تنير عقول أبناء الحياة؛ لأنّ الدين الإسلامي يرشد الناس إلى طريق الخير والمعرفة، ويحرّر العاجزين من الشعور بالذنب، لأنّ الناس ثلاثة أنواع، من حيث القدرة على تلقي الأفكار وفهمها ونشرها، فعناصر النوع الأوّل متلقون قادرون على استيعاب مفهوم الهداية وجوهر العلم، والعمل بهما ونشر فوائدهما في أي مجتمع انتموا إليه، لأنّهم يؤمنون بقوله تعالى:" وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون"[16]، وعناصر النوع الثاني متلقون داعمون وحافظون، ولكن من دون قدرة على النشر والخلق والإبداع، فهم منفعلون وغير فاعلين، وعناصر النوع الثالث عاجزون عن التلقي وعن الإبداع وعن الحفظ فلا فائدة تُرجى مما يسمعون أو يقرأون، وهذا التوزيع الاجتماعيّة المنطقيّ تؤكّده مناحي الحياة الفكريّة والثقافيّة والعلميّة، وعلى معظم المستويات،فعلى المستوى التعليمي العالميّ، تتبع إدارات المؤسسات التعليميّة والتربويّة في العالم توزيع طلاب العلم وفق قدراتهم الفكريّة والانتاجيّة، لأنّ مستويات التلقي والتوليد ليست واحدة عند أبناء البشرية، فالمستويات تتفاوت بتفاوت طاقة الاستيعاب والفهم والارسال.

تخبر قصديات الحديث الرابع عن مظاهر اجتماعيّة كانت وما زالت منتشرة ، ومنها ما جاء توصيفًا للمسكين الحقيقيّ، فجسدت رؤياه "عليه الصلاة والسلام" منارة فكريّة واجتماعيّة عبر التاريخ، ولكنّ لم يستنر بها بعض أبناء المجتمعات؛لأنّهماستمروا في قبول ظاهرة التسوّل ومساعدة المتسولين الأغنياء ماديًّا، وهذا ما أكّدته بعض مواقع التواصل الاجتماعيّ، والإعلام المرئيّ والمسموع من خلالالإخبار عن متسولين يملكون ملايين الدولارات، ولكنّهم عاشوا معوزين، وماتوا فقراء النفس، وتركوا ما جمعوه بالتسول والصدقة إلى الآخرين، فبيّنت هذه الظاهرة ضرورة التمييز بين المتسوّل والمسكين، وضرورة العمل بحديث الرسول" صلّى الله عليه وسلّم" الذي قدّم توصيفًادقيقًالمسكين عزيز النفس صابر مؤمن ينتظر مؤمنًا يغنيه عن ذلّ

[16]- التوبة: 105

السؤال.

كرّس وجود هذه الظاهرة الإيمانيّة/ الإنسانيّة أصحاب النفوس الكبيرة الذين يسترون عوز المسكين بكرمهم وحسن أخلاقهم، فيعملون بقول السيد المسيح " عليه السلام" : "عِنْدَمَا تُعطِي المحتَاجَ، لَا تَدَعْ يَدَكَ اليُسْرَى تَعْلَمُ مَا تَعْمَلُهُ يَدُكَ اليُمْنَى"[17]، وتبيّن عظيم فاعليّة هذه الظاهرة من خلالأداءجمعيات عالميّة تقدّم العون للمحتاجين والمعوزين من دون مقابل، وهذا ما يؤكّد أبعاد الأحاديث النبويّة الشريفة الإنسانيّة والحضاريّة في أزمنة لا تعرف الثبات وأمكنة تتمرّد على حدود الجغرافيا.

رشحت جمل الخطاب الخامس بقصديّات مازال لها دور قيمي فاعل ومؤثر في المجتمعات، وبخاصة التي تعيش أزمة اقتصاديّة،لأنّ ربط الضيافة بالإيمان يحمّل المؤمنين مسؤولية إكرام الضيف، غير أنّ الرسول" صلّى الله عليه وسلّم" خفّف وطأة أعباء الضيافة، وجعلها ثلاث مراتب؛ حق واجب، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات،والمؤمن الكريم يستطيع بما منحه الله من عزة وكرامة أن يتحمّل نفقة إتحاف ضيف مدة يوم وليلة، ونفقة الإطعام مما تيسّر مدة يومين، ولكنّه إذا تجاوز الثلاثة أيامًا، فله الحق في إبلاغ الضيف أنّه عاجز عن الاستمرار في استقباله، من دون أن يشعر أصحاب النفوس الكريمة بالإحراج والخجل، لأنّهم استندوا في اتخاذ القرار إلى كلام أصدق بني البشر، وإلى مقاصد حديث نبويّ شريف يؤسّس لمجتمع إنسانيّ متحضّر وراقٍ.

تكشف العلاقات الاجتماعيّة عن وجود أشخاص لا يخجلون من طول مدة إقامتهم في بيوت مستورة أنعم الله على أصحابها بقليل من الرزق، فتعثّر ربّ البيت ووقع تحت ذل الدين ليكرم ضيفه، وهذه ظاهرة تكرّر حدوثها في عدة مجتمعات كان فيها الضيف ثقيل الظلّ بسبب إقامة تجاوزت الشهر والشهرين، وبسبب خجل المضيف وعدم الأخذ بمقاصد حديث خاطب فيه الرسول أبناء المجتمعات الإنسانيّة في أزمنة وأمكنة لا تعرف الثبات والحدود، ولذلك وجب على المؤمنين قراءة الأحاديث النبوية الشريفة وفهم قصدياتها ومن ثم تطبيقها، لأنّ أفعالها الكلاميّة أضمرت كمونًا إنجازيًّا، له فعلٌ تأثيريّ / قصديّ غايته المحاججة العقليّة والفهم والتأثير ، وكان القصد الأساس تبليغ رسائل دينيّة واجتماعيّة وحياتيّة وأخلاقيّة وإنسانيّة يمكن فهمها من خلال كشف المجمل، والإشارة إلى المحتمل.

رابعًا: بيان الدراسة

بُني سياق الأحاديث النبويّة الشريفة اللفظيّة على نظم الكلمات وترتيبها، فاكتسبت الكلمات من

[17]–متى :9

مواقعها ومن طبيعة تعالقها دلالات انضافت إلى دلالة الوضع والالتزام، وهذه الدلالات المكتسبة، لها علاقة، أولاً، بمقام سياقيّ خارجيّ مرتبط بظروف هيأت لإنتاج الخطاب/ الحديث النبويّ، وثانيًا، بسياق داخليّ، قوامه مفردات انتظمت وفق قوانين نحويّة أكسبت المفردات مروحة دلاليّة، ومقاصد مستترة وراء ظلال التراكيب المتماسكة.

أظهرت القراءة اللسانيّة أنّ بنيات الأحاديث النبويّة الشريفةتأسّست على محورين رئيسين؛ أولهما محور دلاليّ قائم على ترابط البنيات الكليّة واتساقها، وثانيهما محور تداوليّ، قوامه بنية منطقيّة ساعدت على استنباط الأبعاد القصديّة من خلال قراءة البنيات السطحيّة والعميقة، ومن ثمّ التعرّف إلى الأفعال الكلاميّة ، ومتضمّنات القول، والقوة الإنجازيّة وأفعالها التأثيريّة في المتلقين المنتسبين إلى عدد من الأمكنة والأزمنة.

أنتجت البنيات المنتظمة في وحدات لغويّة رياضيّة /كيميائيّة/ فيزيائيّة متواليات كلاميّةً أفادت مقاصد دينيّة وفقهيّة واجتماعيّة وحياتيّة وإنسانيّة وحضاريّة، وأظهرت تمايزَ الأحاديث النبويّة الشريفة، لغةً وتركيبًا وبلاغة ودلالة، ومنحتها هويّة أسلوبيّة قوامها اختيار الألفاظ ودقة التعالق جزالة النظم وجماليّة التركيب المشحونة بالمعاني والرموز والدلالات والقصديات، وديمومة الفاعليّة.

لقد حافظت الأحاديث النبويّة الشريفة، إذًا،على هويّة إنسانيّة حضاريّة كرّس فرادتَها وعظمتها فعلُ زمن حركيّ لا يعرف الثبات، فنحت في الجغرافيات كلّها ثوابت معرفيّة ودينيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة وسياسيّة وإنسانيّة ستبقى منارات فكر وتقدم وخلق وإبداع ، ومركزيّة أساسًا في عملية البحث والكشف والتطوير والتأصيل والتقدّم العلميّ والحضاريّ .